الوضعية اللّغوية ومصطلحاتها في مجال تعليم اللغات

الدكتورة لطيفة هباشي

قسم اللغة العربية وآدابها - جامعة عنابة /الجزائر

ملخص:

إذا كانت اللسانيات العامة في معالجتها للغة وسبر أغوارها، لا تتأثر كثيرا بهوية مستعمليها وغايات استعمالها والهدف من إكسابها أو تعليمها، فإن تعليميات اللغات لا تتعامل مع " اللغة "من حيث هي المعرفة أو المهارة التي ينبغي تعليمها فقط، بل أيضا من حيث تأثيرها ودرجة قربها من المتعلم وعلاقتها به. ومن هذا المنطلق اتخذت اللغة في المجال التعليمي عدة وضعيات اختلفت مسمياتها وتنوعت مفاهيمها؛ إذ يجد الباحث زخما من المصطلحات المنتمية لهذا المجال من ناحية، و المتداخلة في بعض السياقات من ناحية أخرى، وهي مصطلحات في أغلبها تحتفظ بجزء ثابت منها هو لفظ "اللغة" وجزء متغير غالبا ما يرد مسنودا إلى لفظ "اللغة" في حد ذاتها كأن نقول: لغة المنشأ، اللغة الهدف، لغة التمدرس...إلخ.

في هذا الإطار سيكون مقالنا الذي يهدف بالأساس إلى تشريح هذه المنظومة الاصطلاحية المركبة، بغية الوقوف على واقع توظيفها في مجال تعليميات اللغات، ومن ثم محاولة تصنيفها حسب الوضعيات التي تحتلها اللغة بالنسبة للمتعلم ، وصولا إلى تحديد مفهومها وتمييزها عن غيرها من المصطلحات المتداخلة معها.

الكلمات المفتاحية: اللسانيات ;اللغة ;تعليم اللغات ;المصطلحات

إن تعليم اللّغات نوع خاص من أنواع التعليم؛ لأنه عملية نقل مهارة ومعرفة محددة هي اللّغة، فهي عموما نظام صوتي يستعمله الإنسان للتواصل مع غيره شفهيا وكتابيا في جميع المواقف والنشاطات التي يقوم بها أو تصادفه، وأما اللّغة بمفهوم خاص فإنه لا يمكن تحديدها إلا من خلال **الوضعية** التي تتّخذها بالنسبة لمستعملها؛ إذ نسمع ونقرأ في مجال تعليم اللّغات عدة مصطلحات تتصل باللّغة أو تدل عليها، وهي في حقيقة أمرها صفات لوضعيات تتخذها اللّغة لدى الفرد أو المجتمع .

فقد أحصينا من خلال اطلاعنا على بعض الكتب والدراسات العربية والأجنبية في مجال تعليم اللّغات **سبعة عشر** (17) مصطلحا؛ منها ما هو ناتج عن اختلاف في المقابلات المترجمة من لغات أخرى، ومنها ما نتج عن تعدّد وجهات النظر إلى اللّغة، وتتمثل تلك المصطلحات في: لغة المنشأ، لغة الأم، اللّغة الأصلية، اللّغة المصدر، اللّغة الأولى، اللّغة الثانية، اللّغة الأجنبية، اللّغة الهدف، اللّغة المتخصّصة، اللّغة الوطنية، اللّغة الرسمية، اللّغة الامتيازية، اللّغة الرابطة، لغة الانطلاق، لغة المرجع، لغة التمدرس، اللّغة المكتسبة، اللّغة المتعلّمة.

إن هذا العدد الكبير من المصطلحات المستعملة في مجال واحد تحتاج إلى ضبط وفرز لتحديد مفاهيمها بدقة، وإبراز الفروقات التمييزية بين المصطلحات المتشابهة أو المتداخلة، ولذلك يمكن تصنيفها إلى ست مجموعات تختلف من حيث: مصدر اللّغة، ودورها في التفكير والتواصل، ووضعيتها التعليمية، وطريقة تحصيلها، وترتيبها، ووضعيتها الاجتماعية.

1-4-1- من حيث مصدر اللغة:

نجد مصطلحي: **لغة الأم** و**لغة المنشأ**، وكلاهما ترجمة لـ (langue maternelle): «وهي اللّغة الأولى التي يتعلّمها الطفل؛ إنها اللّغة التي لا يتعلّم الفرد كيف يتواصل بها فقط؛ بل يتعلّم بها أيضا كيف يفكّر ويفهم ويبني شخصيته...» [1]، إنها لغة المحيط الذي نشأ فيه الطفل، وبالضّبط لغة أكثر الناس احتكاكا به، سواء كانت أمه أو مربيته أو أفراد المجتمع الذي نشأ فيه منذ ولادته، فيكتسبها تلقائيا وذاتيا من دون تعليمه قواعدها، بل عن طريق تعرضه لها سماعا في بداية الأمر.

ولذلك فإن أحسن مصطلح أراه مناسبا لاحتواء هذا المفهوم هو مصطلح **لغة المنشأ**؛ لأنه أكثر استيعابا، وتعبيرا عن المصادر التي يمكن للطفل أن يكتسب منها لغته، والتي ليست دائما أمه فقط.

1-4-2- من حيث دور اللّغة في التفكير والتواصل:

تتضمّن هذه المجموعة مصطلحي **لغة المرجع** (langue de référence)، و**لغة الانطلاق** (langue de départ).

إذا كانت لغة المنشأ هي اللّغة التي يكتسبها الطفل أولا من محيطه، فتكون مرجعا له عندما يتواصل وحتى عندما يفكر، فإن هذا الكلام قد لا يصدق، على حالة فرد هاجر إلى مجتمع يتحدث بلغة أخرى، فنسى لغته لعدم استعمالها مشافهة، وكتابة وعدم التعرّض لها سماعا وقراءة. واكتسب لغة جديدة تصير مرجعا له مع مرور الزمن، أو في حالة طفل نشأ في محيطين مختلفين أو مع عائلتين مختلفتين لغويا، فإنه سيكتسب نظامين لغويين في الآن نفسه، يستعمل كل واحد منهما في المحيط أو العائلة التي تتكلم تلك اللّغة.

إن الحالة الأولى تبين أن لغة المنشأ **لا تكون دائما** هي اللّغة التي يرجع إليها المتكلم في تواصله وتفكيره، والحالة الثانية التي يسمى صاحبها بمزدوج اللّغة (Bilingue) تدل على أنه لا توجد لغة منشأ **واحدة دائما**، ولا يمكن معرفة أي لغتي المنشأ هي الأولى.

وتجنّبا لهذا الإشكال الذي قد توقعنا فيه بعض الحالات الخاصة، اقترح بعض الباحثين استعمال مصطلح لغة المرجع للدلالة على اللّغة المكتسبة، التي ينطلق منها الفرد ويعود إليها في تفكيره وتواصله[2]، كما فضّل آخرون مصطلح لغة الانطلاق[3].

1-4-3- من حيث الوضعية التعليمية للغة:

أطلق على لغة المنشأ مصطلح **اللّغة المصدر** (langue source) مقابل **اللّغة الهدف** (langue cible) التي تعني اللّغة المراد تعلّمها[4]، وهي بهذا المصطلح يقصد منها اللّغة التي تكون مصدرا للتداخلات الإيجابية والسلبية التي يمكن أن تيسر أو تعيق تعلّم لغة أخرى، وضمن هذا القصد يندرج أيضا مصطلح **اللّغة الأصلية** (langue native) الذي نجده في بعض الكتابات العربية المترجمة من الإنجليزية[5].

وأما المصطلح الأكثر انتشارا واستعمالا للدلالة على اللّغة المراد تعلّمها فهو **اللّغة الأجنبية** (langue étrangère) وهي: «كل لغة غير لغة المنشأ،

- بعيدة جغرافيا.
- بعيدة ثقافيا، رغم اقترابها من لغة المنشأ.
- بعيدة لغويا لوجود اختلاف في نوع اللّغة»[6].

إن اللّغة- حسب هذا التعريف- تكون أجنبية عن الفرد إذا كانت ليست لغة المنشأ، سواء اكتسبها الفرد ذاتيا أم تعلّمها قصديا، فهي بذلك أجنبية عن لغة منشئه لابتعادها عنها **جغرافيا** أو **ثقافيا** أو **لغويا**، ولكن يمكن أن تكون اللّغة أجنبية إذا وجدت **خارج** سياقها الطبيعي وخارج بيئتها الأصلية.

فهي في هذه الحالة أجنبية عن وضعها التواصلي الطبيعي وليس عن متعلّمها. وربما يكون-حسب رأيي- هذا هو الافتراض السليم؛ لأنه يوجد مصطلح آخر يجعلنا نفرق بين تعلّم لغة أجنبية في بيئتها الطبيعية، وتعلّمها في بيئة أجنبية عنها أو اصطناعية، وهو اللّغة المكتسبة الثانية، الذي سنتحدث عنه فيما يلي.

1-4-4- من حيث تحصيل اللغة:

تصنّف اللّغة من حيث الكيفية التي تم تحصيلها بها إلى لغة **مكتسبة** ولغة **متعلّمة**، والفرق بينهما هو نفسه بين مفهومي الاكتساب والتعلّم؛ فاكتساب لغة عملية طبيعية تلقائية وذاتية، ناتجة عن احتكاك الفرد مع محيطه وتفاعله معه، بحيث يتعرض للغة سماعا من أفواه متكلميها الأصليين، وفي بيئتها الاجتماعية والثقافية الأصلية، ويعايش سياقات استعمالها الطبيعية، فينغمس لغويا مما يحقق لديه تعلّما هو أقرب إلى الاكتساب الطبيعي للغة منشئه حتى في حالة لغة ثانية. وهذا ما أطلق عليه اكتساب لغة ثانية بعد اكتساب لغة المنشأ.

وأما تعلّم لغة فهو عملية قصدية تتم في بيئة زمنية ومكانية محددة، ووفق نظام تم تخطيطه، وبمساعدة وتوجيه طرف آخر قد يكون معلّما أو وسيلة، فيتعرّض الفرد للغة سماعا من أفواه متكلمين غير أصليين وفي بيئة اجتماعية وثقافية غير بيئة تلك اللّغة، التي تسمى في هذه الحالة لغة أجنبية أو لغة متعلّمة.

ومن هذا الجانب فإن مصطلح **تعلّم لغة أجنبية** يختلف عن مصطلح **اكتساب لغة ثانية**؛ إذ يعود **الأوّل** إلى تعلّم لغة غير لغة المنشأ في بيئة غير بيئتها الأصلية (كأن يتعلّم ناطقون بالعربية اللّغة الإنجليزية في الجزائر أو ناطقون بالفرنسية يتعلّمون الإنجليزية في فرنسا)، بينما يدل **الثّاني** على تعلّم لغة غير لغة المنشأ في بيئة تتكلم تلك اللّغة، (مثل ناطقون بالألمانية يتعلّمون اليابانية في اليابان)، «وربما يتم هذا في الفصول الدراسية أو خارجها، إلا أن المهم هنا هو أن التعلّم في بيئة اللّغة الثانية يتم في ظل إمكانية تواصل كبير مع الناطقين الأصليين بتلك اللّغة الثانية، بينما لا يحدث هذا عادة في حالة التعلّم في بيئة لغة أجنبية»[7].

ورغم أن هناك من يشترط في اكتساب اللّغة وجود إمكانية التواصل الطبيعي مع المتكلمين الأصليين سواء كان ذلك ضمن إطار منظّم (أي عن طريق تعليم) أو لا، فإن هذا الرأي قد لا يصدق على الفرنسية مثلا في بعض مستعمراتها الإفريقية، إذ تستخدم في التواصل الطبيعي، ولكنها لا تعد في بيئتها الطبيعية الأصلية مثل فرنسا، كما لا يصدق عندما يتعلق الأمر باستعمال اللهجات في التواصل الشفوي الطبيعي، ومن المعلوم أن هناك اختلافات بين اللّغات ولهجاتها حتى وإن كانت طفيفة، إضافة إلى ذلك، فما نقول عن مهاجر لا يعرف من اللّغات غير لغة المنشأ، هاجر إلى

دولة ذات ثقافة ولغة أخرى، فأصبح يتواصل مع مواطني تلك الدولة بلغتهم أو بلهجتهم ؟ هل نقول عنه اكتسب لغة أخرى أم تعلّمها ؟

استنتاجا مما سبق وتفاديا لحدوث التداخلات، يمكن استعمال مصطلح اكتساب اللّغة للدلالة على تحصيل أي لغة سواء لغة المنشأ أم لغة أخرى، بطريقة طبيعية ناتجة عن احتكاك الفرد بأفراد المجتمع الذي يتكلم تلك اللّغة، ومن دون تحصيلها داخل أسوار المدارس أو بتوجيه ومساعدة من طرف آخر، وأما تعلّم لغة فنحصره في تحصيل أي لغة غير لغة المنشأ، بطريقة اصطناعية وقصدية، مخطط لها وبمساعدة طرف آخر، وبذلك يمكن الإجابة عن السؤال السابق بأن ذلك المهاجر قد اكتسب لغة ثانية بعد لغة المنشأ.

وضمن إطار وضعية اللّغة في التعليم، نجد أنها قد تتّخذ وضعية تعليمية معينة في المؤسسات التعليمية؛ فتكون بمثابة لغتها الرسمية التي ينبغي على جميع من ينتمي إليها أن يتعلّمها، ويمارسها داخل أسوارها سواء كانت لغة منشئهم أم لا، أُطلق على هذا المفهوم مصطلح **لغة التمدرس** (Langue de scolarisation)، ومثال هذه الوضعية حالة المهاجرين إلى دول أخرى عندما يتمدرسون في مدارس الدول التي يهاجرون إليها فتعرض عليهم لغات أجنبية عنهم ليتعلّموها ويتعلّموا بها المواد الأخرى.

1-4-5- من حيث ترتيب اللّغة ضمن اللّغات المتحصل عليها ووضعيتها الاجتماعية:

نجد في هذا الصنف مصطلحي: **اللّغة الأولى** (Langue première) **واللّغة الثانية** (Langue seconde)؛ فأمّا **الأوّل** فيعني ما يعنيه مصطلح لغة المنشأ على أساس أن «اللّغة الأولى عند فرد معين هي اللّغة التي اكتسبها أولا أثناء تطويره لملكته اللغوية، وصفة الأولى لا تعني أنها اللّغة الأكثر استعمالا أو أنها ميتة، كما أن اللّغة الثانية أيضا لا تعني أنها ثانوية»[8]، ولكن قد تلحق هذه الصفة (صفة الأولى) مصطلح اللّغة الأجنبية، فنقول اللّغة الأجنبية الأولى، وهنا لا نقصد بها لغة المنشأ، بل هي أول لغة أجنبية تعلّمها الفرد.

وأما مصطلح اللّغة الثانية فقد تعددت مفاهيمه، فهناك من يعني بها اللّغة التي **يتركها الاستعمار** في مستعمراته، نذكر منهم "رولون" (D.Rolland) الذي كتب مقالا نشر في مجلة (الفرنسية في العالم) سنة 2000 عنونه بـ : **الفرنسية لغة أجنبية أم الفرنسية لغة ثانية**، يقول: «ظهر مصطلح الفرنسية لغة ثانية نتيجة الحاجة إلى تحديد وضعية تعليم خاصة ببعض الدول الفرونكفونية والمستعمرات الفرنسية القديمة، أين تعد اللّغة الفرنسية هي لغة التعليم رغم أنها ليست لغة منشأ المتعلّمين»[9].

وهناك من يعني بها اللّغة **الأكثر استعمالا** في المجتمع بعد لغة المنشأ أو اللّغة الأقرب إليها؛ إذ «تمثل اللّغة الثانية للمتعلّمين لغة محيط؛ لأنها مستعملة عند بعض فئات مجتمعهم، كما أنها لغة ضرورية في نظامهم التربوي»[10]، ومثال ذلك الفرنسية والإنجليزية في كندا؛ بحيث أنهما لغتان رسميتان تتحدثان بهما فئتان فرونكفونية وأخرى أنجلوفونية، ولكن كل واحدة تستعمل لغة الفئة الأخرى في التواصل معها، فتسمى في هذه الحالة لغة ثانية أو **لغة وسيطة** (Langue vehiculaire)؛ لأنها لغة تواصل بين شعبين مختلفين في لغة المنشأ[11]؛ ولأنها لغة فرضت نفسها بين مجتمعين مختلفين فهناك من أطلق عليها مصطلح **اللّغة الامتيازية** (Langue privilegieé)[12].

ومن حيث وضعية اللّغة في المجتمع أو الدولة التي تستعملها، يمكن الحديث عن مصطلحي **اللّغة الرسمية** (Langue officielle)، التي تعني لغة تتبناها دولة أو مجموع دول بشكل رسمي وقانوني؛ بحيث تكون لغة التواصل في المقامات الرسمية، وهي تختلف بذلك عن اللّغة الوطنية التي تعني اللّغة التي تحمل القيم الوطنية والثقافية لتلك الدولة ولكنها ليست لغة رسمية[13].

إن واقع حضور هذه المصطلحات في الكتابات العربية يكشف عن ذلك الارتباك والغموض والخلط في التعامل معها فهما وقراءة وتوظيفا، على الرغم من الأهمية التي يكتسيها تحديد مفاهيم المصطلحات؛ فمن المعروف في أدبيات تعليميات اللغات أن تعليم أي لغة يبدأ من معرفة وضعيتها بالنسبة للمتعلم من ناحية ، ووضعيتها من اللغات الأخرى التي تشكل البيئة اللغوية والاجتماعية للمتعلم من الناحية الأخرى.

كما أن ضبط مفاهيم هذه المصطلحات ووضع حدود لها يسهم في تحديد الحاجات اللغوية وتسطير الأهداف، التي تُبنى عليها المناهج. وهذه الخطوة أصبحت على درجة كبيرة من الأهمية في ظل العولمة، والتعدّد اللغوي الذي رفع من نسبة الاحتكاك بين اللغات.

الهوامش:

[1]-Jean Pierre Robert : dictionnaire pratique de didactique de FLE, Ophrays, Paris, 2008 , p 88.

[2] – ينظر المرجع السابق، ص 88.

[3]- *Jean-Pierre* Cuq et autre: dictionnaire de didactique du français (langue étrangère et seconde), CLE international, Paris, 2003,p149.

[4]- Jean Pierre Robert : dictionnaire pratique de didactique de FLE, p 88.

[5] – مثال ذلك كتاب: سوزان جاس ولاري سليكتو: اكتساب اللّغة الثانية (مقدّمة عامة)، تر: ماجد الحمد، ج1، منشورات جامعة الملك سعود، السعودية، 2009.

[6]- *Jean-Pierre* Cuq et autre: dictionnaire de didactique du français, p 150.

[7]– سوزان جاس ولاري سليكتو: اكتساب اللّغة الثانية (مقدّمة عامة)، ص 08.

[8]- *Jean-Pierre* Cuq et autre: dictionnaire de didactique du français, p 152.

[9] – المرجع السابق ، ص 92.

[10] – المرجع السابق، ص 92.

[11] – المرجع السابق ، ص 204.

[12]- *Jean-Pierre* Cuq et autre: dictionnaire de didactique du français, p 152.

[13] - Jean Pierre Robert : dictionnaire de didactique du FLE, p92.